الوظيفة الفنية
للقصة القرآنية
بقلم : الدكتور محمد أحمد خلف الله

هناك نواح عدة يستطيع الدارس ان يقف عندها ليبرز الخصائص الفنية فى القصة القرآنية . فهناك مثلا عنصر الشخصية وهى متنوعة فى القصص القرآنى . فمنها ما هو من الطيور والحشرات ، ومنها ما هو من الملائكة ، ومنها ما هو من الجن ، ومنها ما هو من الأنبياء والمرسلين ، ومنها ما هو من الرجال العاديين ، ومنها ما هو من النساء .

وهناك مثلا عنصر الحوار . وهو أيضا متنوع الأسلوب مختلف الجمل والفقرات باختلاف المواقف القصصية .

وهناك ايضا عنصر الحادثة ذلك الذى يختلف فيه رسم الحادثة فى موطن عنه فى آخر باختلاف الموقف ، واختلاف المقصد والفرض .

عناك عناصر عديدة ، وهناك خصائص فنية مختلفة . وكل منها يستحق الوقوف عنده لتفسيره والحديث عما فيه من قيم جمالية — ولكنى آثرت أن أقف عند أمر آخر له قيمة فى نظرى هو الوظيفة الفنية للقصة القرآنية .

ان القصة القرآنية تهدف الى أغراض بعينها — أغراض دينية فى الغالب — ولكنها عند تحقيقها لهذه الاهداف تؤدى وظيفة اخرى هى الوظيفة التى تؤديها الفنون جميعها .

والوظيفة التى تؤديها الفنون جميعها قد تنتهى عند عمليتى الايحاء والافاضة .

يقول احد النقاد المحدثين : « **انك اذا مررت صدفة بالقطعة الفنية النفيسة أثناء اجتيازك متحف الفنون الجميلة قد تحرك عواطفك بل ربما أثارت دموعك . وكذلك يقال عن القطعة الموسيقية الجيدة التى ليس من الضرورى أن تكون محزنة .**

((أما لماذا تثار هذه العاطفة الخاصة فأمر لم يتقرر بعد . وهو أمر لا نستطيع تحليله — غير أن وحى الفن للعاطفة فى غير هذه الأحوال قابل للتحليل . فان الشىء المحزن يوحى لباعث الحزن مباشرة ، والمضحك لباعث الضحك ، والمؤسف للخوف والهروب . كما أن الدافع الجنسى يستثمر فى الرسم والنحت فى أحيان كثيرة كما يستثمر فى الآداب)) .

ويقول نفس الناقد : **« ان الفن قد يرضينا لأنه يوحى الينا وحيا فكريا – كما يتضح عندما نتذكر أن كثيرا من الاعمال الفنية العظيمة يحتاج الى جهود فكرية لكى نفهمها ونرتاح اليها ، فيجب أن تكون منتبها كل الانتباه لتتمكن من متابعة رواية من روايات شكسبير ، كما أنك تحتاج الى ايجاد مغزى لصورة زيتية قبل أن تتمكن من التلذذ بها جيدا .**

« وقد لا نفتكر عادة عندما نرى صورة فنية جميلة او نسمع قطعة موسيقية بديعة أنها مسالة تحتاج الى حل .

ولا يخفى ان ادراكنا مغزى قطعة فنية يحتاج الى جهود وانتباه . واذا كانت المسالة المطروحة امامنا صعبة جدا كان العمل الفنى جافا ، واذا كانت سهلة كان تافها » .

والقرآن الكريم نفسه قد لفت الذهن الى هذه الوظيفة حين تحدث عن أثر الأقوال فى النفوس ، وكيف أنها تستثير العواطف – مع أو ضد الأشياء .

قال تعالى : **« واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون »**

وقال تعالى : **« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا »** .

* * *

والوظائف الفنية للقصة القرآنية نجملها فيما يلى :

١ – وأول هذه الوظائف وأهمها من وجهة نظر القرآن نفسه تخفيف الضغط العاطفى عن النبى عليه السلام وعن المؤمنين ، ولقد كان هذا الضغط قويا عنيفا وكانت أسبابه واضحة جلية ، فلقد كانت اقوال المشركين وكانت أعمالهم التى يكيدون بها للنبى عليه السلام ، والقرآن الكريم ، والدعوة الاسلامية ، هى السبب فى كل هذا الذى دفع النبى عليه السلام الى أن يضيق .

قال تعالى : **« ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون »** . وقال تعالى : **« قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »**

كان أثر هذه الأقوال فى نفس النبى قويا فعالا ، وكانت تلك الخواطر التى اخذت مكانها من قلب النبى عليه السلام أو من قلوب الأتباع . قال تعالى : **«فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين »**

على أن هذا الضغط العاطفي لم يقف عند حد البلبلة النفسية ، بل تجاوزها الى ما هو أبعد مدى وانفذ أثرا ، حتى لنرى النبي عليه السلام يدعو ربه وهو محنق يكظم غيظه ويضغط عواطفه تلك التي اوشكت على الانفجار . قال تعالى : **« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم اولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم »** .

وقال تعالى : **« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »** وقال : **« فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شيء وكيل »**

كان تخفيف هذا الضغط أو كانت الافاضة عما بنفس النبي عليه السلام ونفوس الأنصار والاتباع مقصدا من مقاصد القصص القرآني ، حتى لا تتزلزل النفوس ، وتترك الدعوة الاسلامية . ولو حدث هذا لما قامت لها قائمة .

كانت عملية القصص في مثل هذه الظروف من العمليات التي يقصد من ورائها القرآن تثبيت قلب النبي عليه السلام وقلوب المؤمنين ، ورد الثقة الى انفسهم ، وبث الطمأنينة في قلوبهم ، وازالة الهم والقلق . وكانت النتيجة لكل هذا هي ذلك الصبر الطويل ، والثبات التي وصل بهم في النهاية الى النصر على الأعداء والمعارضين .

على ان القرآن نفسه قد صرح بهذا الفرض حين قال : **« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »** وحين قال : **« نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »**

وهذا الأمر هو الذي فطن اليه الرازي فيما نقلنا عنه من حديث .

والقصص التي نزلت من أجل هذا كثيرة في القرآن الكريم . ومنها مجموعة القصص التي وردت في سورة هود . ولقد لفت القرآن الذهن الى المقصود من هذه المجموعة في مواطن كثيرة من السورة . فقد قال في أولها : « فلعلك تارك بعض ما يوحى ... الخ وفي آخرها (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ... الخ

ومن هذه القصص ايضا قصة موسى في سورة طه ، ولعله من أجل ذلك بدأ المولى سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله **« طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وأن تجهر**

بالقول فانه يعلم السر واخفى الله لا اله الا هو الأسماء الحسنى وهل أتاك حديث موسى ... الخ » • اذ يمضى القرآن فى سرد القصة مبينا العقبات التى لاقاها موسى عليه السلام والصعاب التى وضعها فرعون فى طريقه ، ثم الصعاب التى تعاون فى توجهها الى موسى كل من قومه وأخيه السامرى الى أن ينتهى النص بقوله تعالى : ((**كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا !**)) •

ومن هذه القصص أيضـا قصة موسى فى سورة القصص ، ومجموعة من قصص سورة الأنبياء وأخرى من قصص سورة الصافات •

واذا أردنا أن نختار قصة تمثل نفسية النبى عليه السلام فى موقفه من قومه، وفى فترة من فترات تاريخه أصدق تمثيل فلن نجد أقوى من قصة نوح فى سـورة نوح ، تلك القصة التى تعرض لمشكلات النبى عليه السـلام ، أو عهده بالدعوة الاسلامية مشكلة مشكلة ، والتى تتمشى فيها حركة الأسلوب مع حركة العاطفة ، والتى تمثل الضيق الذى ألم به كما تمثل اتجاهه الى الخالق سـبحانه وتعالى ليخفف عنه البلاء ، وينقذ المؤمنين من هذه الجماعة الضالة المضلة ــ وهى جماعة الكافرين •

قال تعالى : « **بسم الله الرحمن الرحيم • انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم • قال يا قوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخـر لو كنتم تعلمون • قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا ، وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم انى دعوتهم جهارا ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهـارا ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيهـا ويخرجكم اخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا ، قال نوح رب انهم عصـونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سـواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا ، مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصـارا ، وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبـادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا ، رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين الا تبارا** •

فهنا قصة لها قيمتها الأدبية ، ولو حاول النبى عليه السلام تصوير حاله فى قصة لـما صورها بقصة أحسن مما اختار له الخالق سبحانه •

والتشابه هنا تام بين حالة نوح في القصة وحالة محمد عليه السلام ، نلحظه في عناصر الدعوة من عبادة الله وطاعته كما نلحظه في طريقة الدعوة من حيث الجهر والاسرار . وفي مقابلة القوم لنبي الله ودعوته بالنفور والفرار ثم بالاستكبار ، وجعل الأصابع في الآذان . ثم في الاشياء التي رغب بها في الايمان من الامداد بالمال والبنين والأنهار والجنات . ثم في الأشياء التي تلفتهم الى عظمة الخالق سبحانه وتعالى من خلقهم أطوارا ، ومن خلق السموات السبع الطباق ، ومن جعل القمر نورا والشمس سراجا ،ومن انباتهم من الأرض وجعلها بساطا ليسلكوا فيها سبلا فجاجا . ثم في مناجاته لربه تلك المناجاة التي يخبره فيها انهم اتبعوا الأغنياء ومن لم يزدهم ماله وولدهم الا خسارا ، ثم في تصويره لمكر هؤلاء الاغنياء او القادة حين طلبوا من قومهم البقاء على ما هم عليه من عبادة للأوثان .

وهنا لابد من لفت الذهن الى أن الأوثان هنا هي بعينها ، تلك التي كانت تعبد في الجزيرة العربية اول عهد الجزيرة بالبعثة وبمحمد عليه السلام « ود . سواع . يغوث . يعوق . نسر » .

وأخيرا يكون التشابه أيضا في اتجاهه نحو ربه ، ودعائه على الكفرة من قومه ، وطلبه من المولى سبحانه وتعالى ان يستأصل شأفتهم ، حتى ينجو العالم من شرورهم وآثامهم وحتى لا يبقى الا من دخل بيته من اهل التقوى والايمان .

ونعتقد أن هذه القصة من القصص التي كان النبي عليه السلام يجد فيها صدى نفسه ، وانها من هذا الجانب كفيلة بأن تزيح عن كاهله بعض الأثقال وأن تزيل عن نفسه بعض الألم ، وان ترد الى نفسه الثقة والطمأنينة ، حين يرى أنه ليس الواحد الفرد في هذا الميدان .

* * *

٢ — وتجرى مع عملية تخفيف الضغط العاطفى عملية أخرى لا تقل عنها أثرا في حياة الدعوة الاسلامية ، تلك هي عملية توجيه العواطف القوية الصادقة نحو عقائد الدين الاسلامي ومبادئه ، ونحو التضحية بالنفس والنفيس في سبيل كل ما هو حق ، وكل ما هو خير وكل ما هو جميل .

ولعل هذه العواطف هي التي تدفع الى النشاط للدعوة ، كما تجعل الانسان يستعذب الألم ويتحمل الأذى في سبيلها . ومن هنا يكون التوجيه نحو القيم الجديدة والايمان بها ، ثم الدفاع عنها والعمل على حث الناس على الايمان بها . ايمانا قد لا تزعزعه الحوادث ، وقد لا تذهب به النكبات .

ومثل ذلك ومن صميم العمل الفنى ايضا العمل على تكوين عواطف قوية وصادقة ضد كل ما هو قبيح وذميم من الأشياء والناس . وعند ذلك تتذبذب المبادىء التي شاخت وهرمت وأصبحت لا تسير الحياة والأحياء . وذلك هو الذى

قصده القرآن حين قص ما استثار الغرائز وولد عواطف الكراهية والمقت للأوثان وعبادتها . وما أحيطت به تلك العبادة من ضروب للتقديس ومن تقاليد وعادات .

والأشياء التى حاول القرآن توجيه العواطف نحوها هى مشكلات البعث والوحدانية ، وبشرية الرسل ، وتأييد بعضهم بالمعجزات ... الخ

أما الأشياء التى حاول القرآن خلق عواطف ضدها فكثيرة متنوعة ، نذكر منها على سبيل المثال :

(أ) تلك التى تتصل بالقيم الخلقية من أمثال اللواط ونجس الناس أشياءهم ، وتطفيف المكيال والميزان .

(ب) ومنها ابليس والشيطان ، وقصة ابليس مع آدم قصة ادبية بليغة تعتبر احد النماذج الأدبية القصصية فى القصص القرآنى .

وقصة ابليس مع آدم من القصص التى تستثير العاطفة ، وتنشط الخيـال والتى يقف الفكر امامها حائرا ، حتى ينتهى الى الاحســاس بالعجز عن فهم تلك الأسرار الخفية التى دارت فى الملأ الأعلى فى جو تحيط به الظلال وتكتنفه الغيبيات.

هذه الأمور بالذات هى التى دفعت بالرازى الى الحيرة ، وجعلته عاجزا عن فهم الصنيع الأدبى والمقصد القرآنى والوقوف على أسرار ما دار هنـاك ، وكانت نتيجته اخراج آدم وحواء من الجنان .

يقول رحمه الله عند تفسيره للقصة من سورة الأعراف ما يلى .. السـؤال الثانى أن آدم عليه السلام كان يعرف ما بينه وبين ابليس من العداوة فكيف قبل قوله ؟ .

والجواب لا يبعد أن يقــال ان ابليس لقى آدم مرارا كثيرة ، ورغبه فى أكل الشجرة بطرق كثيرة ، فلأجل المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلامه فى آدم عليه السلام » . اذ نلحظ فى هذا الموقف من الرازى انه لا يطمئن الى قصة دخول ابليس الجنة بعد طرده منها . كما نلحظ ان عقله لم يقبل أيضا قصة الحية ، ولذا نراه رحمه الله يفترض أن ابليس قد لقى آدم مرارا وتحدث اليه .

على أننا نجد الرازى فى موقف آخر يعجب كثيرا من موقف آدم واستجابته لدعوة ابليس ، واهماله لتعاليم ربه ، وذلك عند تفسيره للقصة من سورة طه اذ نراه يقول « واعلم ان واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله : « **فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** » ورغبه ابليس ايضا فى دوام الراحة بقوله : « **هل أدلك على شجرة الخلد** » ، وفى انتظام المعيشة بقوله : « **وملك لا يبلى** » فكان الشىء الذى رغب الله آدم فيه هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها

ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن ابليس عدوه حيث امتنع عن السجود له ، وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته - كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بكمال عداوته له ، واعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه الناصر والمربى .

ومن تأمل فى هذا الباب طال تعجبه ، وعرف آخر الأمر ان هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه ، وأن الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية للقوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله تعالى ذلك وقدره » .

ونحن لن يطول تعجبنا من هذه القصة كما طال مع الرازى ، ذلك لأنا نعلم ان هذه القصة ، قصة بليغة تصور الصراع بين قوى الخير وقوى الشر . ولعل هذه الحيرة التى لحظناها عند الرازى هى الدليل القوى على أن هذه قصة أدبية بكل ما يحمل معنى هذا اللفظ من صور ، وهى من هذا الجانب من القصص الادبى الطليق .

واذا أردنا أن نختار واحدة من هذه القصص الدائر حول قصة الخروج من الجنة فأمامنا قصة آدم من سورة الأعراف .

قال الله تعالى « **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين قال : أنظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين قال أخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما انه يراكم هو وقبيلة من حيث لاترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .** »

فهذه القصة كما ترى تستعرض العداوة بين آدم والشيطان وترينا أن ابليس يرى نفسه أفضل من آدم ، لانه خلق من نار وآدم خلق من طين ، وهذا هو الأمر الذى دفعه الى الكبر والاستكبار فأبى السجود ، ومن هنا كان العقاب من الخالق سبحانه ، وكان العقاب اخراج ابليس من الجنة ذليلا صاغرا .

وهذه القصة تربنا ان ابليس طلب من الخالق قبل أن يخرج من الجنة أن يأذن له بالدخول ليستطيع ان يلعب دوره في الحياة ، وهو الافساد وصد الناس عن اتباع السبيل القويم .

هنا نحس ان أحدى مراحل القصة قد انتهت ، وهى مرحلة الخلق والسجود وهى المرحلة التى تصور فيها نشأة العداوة . وتبدأ بعد ذلك مرحلة ثانية هى آدم وحواء فى الجنة ، وهما شخصيتان تنعمان بالحياة ، اذن لهما الخالق سبحانه وتعالى أن يطعما كل ما فى الجنة الا شجرة واحدة . هنا يأتى الدور الحقيقى لبطل القصة وهى ابليس فقد بدأ وسوسته لأول انسان من البشر هو ذلك الذى من اجله خرج من الجنة .

استجاب آدم لوسوسة الشيطان وأكل من الشجرة وخالف أوامر ربه فكانت عاقبته الخروج من الجنة ، وخرج الى حيث ينتظره ابليس .

بعد ذلك يكون العقاب بين الخالق والمخلوق ، ويكون التوجيه الدينى وهو يشبه الى حد كبير ذلك المغزى الذى يقصد اليه من القصص الخلقى .

تلك هى قصـــة آدم وابليس ، أو قصة النزاع بين الخير والشر أو قصـــة الغرائز الفاضلة مع الغرائز الشريرة . وهى قصة قصد القرآن اليها وبناها بناء أدبيا بليغا ، ودفع بها الينا لتثير فينا الحقد والكراهية لابليس ، وتدفعنـــا الى النفور منه حتى لا نستجيب له ولا نأتمر بأمره أو نستمع الى نواهيه .

* * *

(ج) ومنها الكبر والاستكبار والاصرار والعناد ، ويستوى فى ذلك كثير من الأشخاص خاصة الاغنياء والقادة ، أولئك الذين أخذوا دور العتاة الظالمين الذين يستكبرون على الحق ، ولا يريدون اتباعه .

ولعل أبرع المواقف القصصية التى تصـور هؤلاء القـادة ، وتحرك عواطفنا نحوهم موقف فرعون من موسى عليه السـلام ، وموقف المستكبرين من قوم هود وقوم صالح .

واذا كانت قصة الخروج قد استثارت العواطف وارخت للخيال العنان فانا نجد موقف فرعون يصنع مثل ذلك الصنيع فى القارىء لقصصه فى القرآن

وفرعون من الشخصيات القصصية التى تنبض بالحيوية وتتحرك قاسـية عنيفة فتشيع الرهبة فى النفوس ، والخشية فى القلوب ، وتخرج منها ألفاظ التهديد والوعيد وهى تقطر دما .

واذا اردنا أن نختار قصة تمثل مواقف المسـتكبرين من الرسـل والانبياء والنتيجة التى انتهت اليها الامور ، فلن نجد فيما يخص فرعون أحسن من موقفه من موسى فى قصته الواردة فى سورة يونس .

قال تعالى : « **ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه بآياتنـا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر**

مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ، قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض ومانحن لكما بمؤمنين ، وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ماجئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لايصلح عمل المفسدين ... ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون . فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وان فرعون لعال في الأرض وانه لمن المسرفين ... الخ »

ففي هذه القصة التي لم نتم تسجيلها هنا عرض لمواقف فرعون من موسى وقومه ومن السحرة انتهى بالنتيجة التي تنتهي بها القصة الشعبية في كثير من الآداب العالمية من انتصار البطل والقضاء على الظالم الطاغية .

ونلمس نفس الروح من موقف عاد من نبيها . قال تعالى : « **فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون** »

وليس من شك في أن نتيجة العرض القصصي لامثال هذه المواقف يلقى في النفس الخشية والرهبة ويبث فيها الخوف عندما تحس أن النتيجة هي العقاب ، وليس من نتيجة للخوف سوى الهرب والابتعاد عن مصدر العقاب ، وعند ذلك تكون النفرة وتكون الكراهية .

(د) ومنها عبادة غير الله : فقد كثر استثارة الانفعالات ضدها وتنفير الناس عنها وكان ابراهيم هو البطل الذي دار حوله أكثر مانزل من قصص يهدف الى هذه الغاية ، ويستعين بالوسائل الفنية للتنفير والاحتقار .

دار بعض هذا القصص حول عبادة النجوم ، ودار بعضه الآخر حول عبادة الاوثان ، وكانت وسيلة ابراهيم الى غايته أن يشكك القوم فيما يعبدون ويضع بين أيديهم صورا لهذه الآلهة ، وهي عاجزة العجز التام عن أن تنفع أو تضر ، كما أطلعهم على أنهم يعبدون ما ينحتون ، فهم الذين يصنعون هذه الآلهة ، ثم يقومون نحوها بضروب التقديس والاجلال . واذا أردنا أن نختار احدى القصص التي تصور هذه الناحية فلن نجد خيرا من قصة ابراهيم في الشعراء « **واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم او يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فانهم عدو لي الا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ،**

رب هب لي حكما والحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان صدق في الآخرين ، واجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبي انه كان من الضالين ، ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم ، وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم او ينتصرون ، فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود ابليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله ان كنا لفي ضلال مبين ، اذ نسويكم برب العالمين، وما اضلنا الا المجرمون ، فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ، ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم . »

اذ في هذه القصة نلحظ موقف ابراهيم من أبيه وقومه وهو يســألهم عما يعبدون وانهم ليجيبونه بأن معبوداتهم هي الاصنام لكنه يعود فيسأل عما تقدمه لهم من خير وتيسر لهم من منافع . وانه ليتجه بالسؤال نحو حاستين ضروريتين للمخلوقات فضلا عن الخالق هما الوسيلة للاستجابة وهما السمع والبصر .

ويعجز القوم عن الاجابة ويعرفون أنه التقليد ، وانهم ماعبدوها الا لانهم وجدوا آباءهم الاقدمين على هذه الحــال ، يعبدونها ويقومون نحوها بضروب التقديس والاجلال ، وهنا تثور نفس ابراهيم ، ويعلن العداوة الا لخالقه الذى يطعمه ويسقيه واذا مرض فهو يشفيه والذى يميته ثم يحييه ، والذى يطمع في أن يغفر له خطيئته يوم الدين ، وشتان بين الصــورتين وبين النوعين من الآلهة . نـوع يستجيب فينفع أو يضر ونوع لا يستجيب بل لا يسمع ولا يبصر . وليس هناك من دافع يدفع الى النفرة والكراهية من الأوثان أفضل من هذا ؟

بعد ذلك نلحظ تلك المناجاة التى يتوجه فيها نحو خالقه يدعــوه فيها بتلك الدعوات الصالحات ، رب هب لي حكما والحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لابي انه كان من الضالين ، ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

وتنتهي القصة بتصوير مشهد في الآخرة ، مشهد يذيب القلوب ويبعث على النفرة من عبادة الاوثان . مشهد يصور ذلك الخصام العنيف الذى سيكون بين الاصنام وعابديها ويصور الحسرة والألم على ماأضاعوا من أعمار ، وماتركوا من خير ، كما يصور الندم من اتباع المجرمين والاستماع الى القادة المضلين . **قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين ، وما اضلنا الا المجرمون ، فما لنــا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين »** .

ثم تكون تلك الفقرة التقليدية ، التى يختم بها القرآن قصصه في هذه السورة وهى ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم .

وكنا نستطيع ان نمضي في الحديث عن تلك الاشياء التى أثار القصص القرآني

النفوس ضدها كصد الناس عن سبيل الله وكالحسد . وكنا نستطيع ان نمثل لذلك ببعض القصص كقصة شعيب ويوسف وابنى آدم ، ولكنا آثرنا ان نكتفى بما تقدم لان القصد كان التدليل على وجود هـذا الغرض ، وضرب الامثلة التى تثبت وتوضح ، ونعتقد ان قد بلغنا من ذلك ما نريد .

* * *

٣ ــ والقصة كما تقوم بعملية الافاضة وعملية الايحاء او تكوين عواطف قوية وصادقة مع او ضد القيم الخلقية والدينية الاجتماعية الموجودة فى البيئة او المراد فرضها عليها ، تقوم بعملية أخرى لا تقل عن هذه اثرا فى حياة الاسلام والمسلمين تلك هى الثقة والطمأنينة أو بذر بذور الخوف والقلق والاضطراب النفسى .

القصة القرآنية لها خطرها من هذه الناحية فهى التى تولد هذه الاشياء بعرضها صورا من الحياة الدينية انتصر فيها الدعاة ومن آمن بهم ، وحاق الدمار والهلاك بالقادة المعارضين ومن اتبعهم . وهذه الامور ملحوظة فى مجموعات قصص سور الاعراف والشعراء والقمر .

ونلحظ أن عملية الخلق الفنى فى هذه المجموعات تقوم على أساس اختيار بعض العناصر المعروفة . والمتداولة من أخبار الامم السابقة ، ومزجها واخراجها فى الثوب الذى يؤثر الاثر المطلوب من اشاعه القلق والاضطراب فى قلوب الكفرة والمشركين ، أو رد الثقة والطمأنينة لنفوس المؤمنين . ومن هنا قال شعيب لقومه **((ياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد)) .**

ونستطيع أن نأخذ بعضا من قصص سورة القمر ولتكن **((كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمرقد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفى ضلال وسعر أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من الكذاب الاشر انا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر فكيف كان عذابى ونذر انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)) .**

أنا نلحظ التشابه التام فى بنايه القصة فى هذه المجموعة كما نلحظ انها تبتدىء وتنتهى بعبارات تقليدية كذبت ... بالنذر ، فكيف كان عذابى ونذر ، وتوجيها تقليديا ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . ثم نلحظ قصر الفقرات وتعاقب الجمل بعبارات مسجوعة ذات رنين قوى . وقد كان القصد فيما نعتقد أن تؤثر

هذه الموسيقى على الحس ، فيتضاعف الاثر النفسى ويقوى ، واذا ما ضممنا الى ذلك ماتقوم به عملية التكرار القصصى من عرض صور سريعة ومتلاحقة بحيث لا يكاد الانسان ينتهى من مشاهدة واحدة منها حتى تهجم عليه الاخرى . قدرنا مقدار ما تشيعه هذه الصور من اضطراب وفوضى وقلق نفسى ، خشية أن ينزل بهم الضرر أو ينالهم الاذى .

وكذلك نلحظ نفس العملية فى قوله تعالى : « **الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة كذبت ثمود وعاد بالقارعة فاما ثمود فأهلكوا بالطاغية واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية** » .

اما قصة شعيب « **والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان انى اراكم بخير وانى اخاف عليكم عذاب يوم محيط وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولاتبخسوا الناس اشياءهم ولاتعثوا فى الارض مفسدين ، بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما انا عليكم بحفيظ . قالوا ياشعيب اصلاتك تامرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء انك لأنت الحليم الرشيد . قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم الى ما انهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب . وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود ، قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ، قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان ربى بما تعملون محيط ، وياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا انى معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا فى ديارهم جاثمين كان لم يغنوا فيها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود** انتهى .

فهذه قصة تجرى هينة لينة ويبقى البطل هادئا رزينا واستحق بحق ما اطلقه عليه بعض المفسرين من لقب خطيب الانبياء . فهو يحاور القوم ويداورهم لكن لانامة ولا حركة ولا انفعالا قويا عنيفا يدفعه الى العبارات القاسية التى يقطر الدم من الفاظ التهديد والوعيد فيها . وتمضى القصة حتى تنتهى الى تلك النهاية السعيدة بالنسبة لشعيب والمؤمنين وتلك النهاية المؤلمة بالنسبة للكفرة والمشركين .

وهكذا أكثر القصص كقصة موسى فى القصص وقصص الصافات ، اذ كل هذه القصص تصور النتيجة الاخيرة لكل صراع فى سبيل المبدأ والعقيدة . وهى انتصار المؤمنين وخذلان المنكرين المخالفين **انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** »

٤ ـ ونستطيع أن ننتهى من هذه الوظائف بوظيفة أخيره هى الايحاء بأن محمدا عليه السلام رسول حقا وأن الوحى ينزل عليه ويبلغه أخبار السماء .

وتقوم العملية الفنية فى بعض هذه القصص على ان حالة محمد عليه السلام تشبه حال غيره من الانبياء كموسى وابراهيم « **انا أرسلنا اليكم رسولا كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول** » . « **انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل كان الله عزيزا حكيما ، لكن الله يشهد بما أنزل اليه انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا** » .

وعلى أن ما طلب اليه وما أوصاه الله به هو ما أوصى به الانبياء من قبل « **شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب** » .

وفى هذا نستطيع أن نقول ان العرض كان من قبيل عرض الاخبار العادية التى لم يقصد بها الا لفت الذهن الى قضية من القضايا .

والقصة التى نستطيع ان نسميها قصة فيما يخص نواحى هذا الغرض هى تلك التى عالجت الامر الثالث أو الاخير وهى معرفة أخبار السماء وأن الوحى ينزل عليه بها وانه ما كان يعرفها من قبل .

والقصص التى تمثل هذا النوع كثيرة منها قصة موسى فى القصص وقصة نوح فى هود . واذا حاولنا انتقاء قصة تفى بالغرض وتدل على المراد فلن نجد أفضل من قصة مريم فى آل عمران وهى : « **اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى انك انت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وانى سميتها مريم وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ، هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ، قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، قال كذلك الله يفعل مايشاء . قال ربى اجعل لى آيه قال آيتك الا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا ، واذكر ربك كثيرا ، وسبح بالعشى والابكار . واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وماكنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم اذ يختصمون** » .

ففى هذه القصة نلحظ معرض صور . فهناك صورة امرأة عمران ونذرها وصورة زكريا ودعائه وصورة عيسى ورسالته ، وتدخل مريم فى كل صورة من هذه الصورة ، ومع كل شخصية من هذه الشخصيات حسب ما يتطلبه الموقف من ظهور تام جلى أو ظهور ناقص خفى .

نلحظ صورة امرأة عمران تلك المرأة المتدينة التى تنذر ما فى بطنها لله وفى سبيل الله . ثم نلحظ تلك المسحة الخفيفة من الألم والحسرة التى تطوف بنفسها على أن كانت المولودة أنثى ، وتلك العاطفة النبيلة أو تلك الرقة وذلك الحنان اللذين يتجليان فى توجهها الى الله من أجل مريم وقولها له : « **انى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** » واستجاب ربها فأنبتها نباتا حسنا وتقبلها بقبول حسن وجعلها فى كفالة رجل من رجال المحاريب هو زكريا وهنا نلمح أثر غير العادى فى القصة من حوادث خارقة ومعجزات ، فمريم يأتيها رزقها من السماء وزكريا ينجب فيولد له يحيى وامرأته عاقر ، وتلك ارادة الله والله يفعل مايشاء .

ولقد كان هذا الموقف من زكريا بعد توجهه الى ربه ، وطلبه منه ذرية طيبة واستجابة ربه له ثم تعجبه من تلك الاستجابة مجيرا للرازى فيما شرح من تفسير للقصة .

وتمضى القصة بعد ذلك ويكفينا منها هذه التوجيهات الدينية التى تتصل بمردانا وهى قوله تعالى « **ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وماكنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم اذ يختصمون** وقوله **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم** وقوله **ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم** » .

وهكذا نستطيع ان نختم هذا المقال دون ان يفوتنا لفت الذهن أو تكرير القول بأن أمور الدعوة الاسلامية وشرح عقائدها وتوضيح مبادئها كانت ترد فى أثنايا القصة وبين طياتها فى كل ما جاء فى القرآن من قصص ، وأنها كانت غرضـــا لكنه ليس بالغرض الذى تنتهى عنده القصة ويكون منها النهاية أو الختام ، وانه من أجل ذلك كانت هذه التوجيهات من الموضوعات لا من الاغراض .